

خطاب الأنبياء لأقوامهم - منهج حياة وطريق نجاة

أ.د. رحيم خريبط عطية

مركز دراسات الكوفة/ جامعة الكوفة

المقدمة:

يبحث هذا الموضوع في الطريقة التي يتوجّه بها الأنبياء عليهم السلام في مخاطبة أقوامهم وكيفية الحوار الذي ينشأ نتيجة لهذا الخطاب . ويتابع البحث الأساليب التي يتبعها النبي لإيصال رسالة السماء . ومن الطبيعي أن يختلف أسلوب كل نبي عن الآخر تبعاً للمستوى الفكري والعلمي والاستعداد لدى قومه ودرجة تطوّرهم واستقبالهم الرسالة . فضلاً عن أن الأنبياء من أصحاب الرسالات السماوية والكتب التي نزلت عليهم أو الصحف يختلفون في توجيه أقوامهم عن الأنبياء الذين لم يحملوا كتباً منزلة أو صحفاً . ولكن المنهج يبقى واحداً قد صدر من لدن حكيم عليم ، لا يتغيّر بتغيّر الزمن ، ولا بتطوّر الحياة . وبشكل عام فإنّ الأنبياء توجّهوا إلى قومهم بالحوار ونهيه عن الطريق غير المستقيم وقدموا الأدلة تلو الأدلة كي يقنعوهم بالطريق القويم الذي أراده الله تبارك وتعالى لعباده ، وكانوا يتبعون الحكمة والموعظة الحسنة لهم ؛ من أجل الرجوع إلى طريق الحق . وإنّ الأنبياء عليهم السلام لم يملّوا من دعوة أقوامهم إلى هذا الطريق ولم ينتابهم الضجر أو التعالي ، وبذلوا كلّ شيء من أجل أن ينجحوا بمهمّة الرسالة والنهوض بأعباء النبوة ، وفضلاً عن هذا أنهم كانوا لا يطلبون أجراً على هداية أقوامهم أو إبلاغ الرسالة . ويكفي مثلاً واحداً من أن النبي نوح عليه السلام - وهو من أولي العزم من الرسل - بقي يدعو قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً ، قال تعالى: ((وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ))^(١)

في هذه الآية دلالة واضحة على أن النبي لم يستطع النجاح - دائماً - إلاّ بهداية الله تعالى لقومه مثلما حصل الأمر مع رسول الله "ص" إذ نجح خلال ثلاث وعشرين سنة من هداية العرب جميعاً وخلق آخرين ، ومثلما تمكّن النبي سليمان من النجاح في هداية قومه - علماً أنّه لم يكن من الأنبياء من أولي العزم

من الرسل ! ونراهم يعتمدون على أعمالهم ؛ من أجل قوت يومهم ، ونراهم يتحملون وزر إعالة عوائلهم ، فكان النبي زكريا عليه السلام يشتغل نجاراً والنبي عيسى يشتغل نجاراً أيضاً في أرض الجليل ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرعى الأغنام . قال تعالى - عن لسان هود عليه السلام الذي أرسل إلى قومه عاد : ((يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ))^(٢) وقال تعالى مخاطباً رسوله الكريم : ((أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ))^(٣)

وقد أمر الله سبحانه وتعالى البشر بأن يتبعوا الأنبياء جميعاً بقوله تعالى على لسان الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى : ((اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون))^(٤)

وهذه الآية صريحة في أن الاصطفاء الإلهي على منهج واحد . ونجد خطاب الأنبياء يختلف من قوم إلى آخرين - بحسب مستوياتهم الفكرية ومستوياتهم المعاشية أيضاً - وكل الأنبياء باستثناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتشابهون من قبيل بعثتهم إلى أقوامهم ، ولكن النبي الكريم بعث إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وربّما يشبهه - إلى حدّ ما النبي سليمان ، وقصّته مع الجنّ معروفة لكنّه لم يصل إلى مسؤوليّة الرسول الكريم بهداية الناس جميعاً فضلاً عن أن رسالته خاتمة الديانات وأن لا نبي بعده . لذلك نرى النبي الكريم خاطب الناس بأصناف الخطاب وكان يعلم أن رسالته هي خاتمة الرسالات وأنها ديانة تشريع فمن الطبيعي أن يختلف الخطاب ؛ لأنّ الناس الذين يأتون بعده "ص" بهم حاجة إلى خطابه . وباستثناء النبي عيسى "ع" أيضاً : ((لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ))^(٥)

وقوله تعالى ((وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ))^(٦) وكذلك نجد الخطاب يختلف بين نبي وآخر من أصحاب الرسالات السماوية أنفسهم ، ومن الأمثلة على ذلك ما وجّهه

فرعون من خطاب إلى موسى وما كاله من تهم تمثلت في أنّ موسى كان ساحراً ، بل هو كبير السحرة الذين جاؤوا لنصرة فرعون موسى عليه السلام ، قال تعالى ((قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيُنَا أُشْدَّ عَذَابًا وَابْقَى))^(٧)

وأنت ترى كيف حاول فرعون بذكاء الشياطين - أن يقلب إيمان السحرة وتركهم حاكمهم والتوجّه إلى النبي إلى الالتفاف على ما حصل وإقناع قومه بأنّ موسى هو كبير السحرة لتكون الفكرة منسجمة و مقبولة لدى قومهم الذين استخفّهم فرعون فأطاعوه ، قال تعالى : ((فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ))^(٨)

وقد رأيت أنّ فرعون اتهم موسى "ع" بتهمة من جنس المعجزة التي غلب فيها موسى السحرة ، ولكنّ ما قام به السحرة من خداع يختلف عن معجزة موسى فاختلط الأمر على الناس ، فحبال السحرة انقلبت إلى حيّات تسعى في عيني موسى تخيلاً وليس حقيقة لكنّ عصا موسى انقلبت إلى حية تلقف ما يأفكون . في حين نجد أنّ قريشاً اتهموا الرسول الكريم بأكثر من تهمة ، اتهموه بالكهانة ظناً منهم أنّ القرآن يشبه سجع الكهان في الجاهليّة ، واتهموه بالسحر واتهموه بالشعر ظناً منهم أنّ القرآن يشبه الشعر ؛ لما من مجازات واستعارات وكنائيات وغيرها من الصور التي كان الشعر الجاهلي يحفل بها ، واتهموه بالجنون ظناً منهم أنّ ما يعتري الرسول لحظات نزول جبريل "ع" عليه بالوحي يعدّ ضرباً من الجنون ، وظنّ بعض المستشرقين أنّ ما يعتري النبي - لحظات نزول الملك عليه بالوحي - هو ضرب من الصرع وهم لا يعرفون أنّ الذي يمرّ بنوبات الصرع لا يتذكّر أي شيء بعد النوبة ! واتهموه أنّ القرآن لا يأتيه من وحي ، بل من غلام حدّاد رومي كان الرسول يجلس إليه ويحدّثه ظناً منهم أنّ الغلام يعلمه الإنجيل ! هذه التهم - وربما غيرها - لا تستقرّ على حال مثلما ذهب فرعون ، فهي كثيرة وأتّى لرجل أُمّي لا يقرأ ولا يكتب - وهم يعرفون ذلك - أن يتقن هذه الأشياء كلّها ؟ والتهمة التي تشبه تهمة فرعون وتدخل في

"خانة" الذكاء هي أن النبي شاعر ، أو ما يقوله يشبه سجع الكهان ؛ لأنّ العرب كانت أمة بيان لا تدانيها قديماً إلا الإغريق ووصلت مراتب متقدمة من الخطابة والشعر حدّاً عجبياً . ولكنهم لم يثبتوا عليها ؛ لأنّهم - فيما يبدو - كانوا غير متأكدين ، فالقرآن في طروحاته التي طرحها وفي نظريّاته ما يربو على الشعر درجات كبيرة فليس فيه خطأ فضلاً عن التحدي الذي عرض عليهم وما طرق من نظريات تتعلّق بالفلك وبخلق الجنين والتارات التي تطرأ عليه وجريان الشمس لمستقرّها وتقدير القمر على منازل ونزول المطر وغيرها من الآيات والحجج الدامغة وما قاله الوليد المخزومي حين أرسلوه إلى الرسول الكريم لقومه من انبهار وتعجب ما جعلهم متحيرين - حقّاً - أنّهم أمام شيء جديد لا يشبه ما علموه وما فقهوه وأُخرس خطبائهم ومصاعقهم وشعراؤهم وذهلوا أمام الإعجاز القرآني فضلاً عن الأسلوب الراقي المتأنق في التعبير ودقّته التي عبّر عنها عبد القاهر الجرجاني بنظريّة "النظم" وكيف أنّ القرآن توخّى معاني النحو أو الإعراب في طريقة نسجه ونظمه .

التمهيد:

يختلف القرآن الكريم - كونه نصّاً - عن النصوص الأخرى من زاوية مهمّة جدّاً تتمثّل في أنّه نصّ إلهيّ دقيق في مراميه ؛ لأنّه صدر من الله تعالى - عن طريق الوحي - وبناء على هذه الحقيقة فهو باقٍ إلى أن يرث الأرض ومن عليها ، في حين أنّ النصوص الأخرى لا تستطيع أن تبقى بقاء الإنسان من دون أن تتغيّر النظرة إليها سلباً أو إيجاباً . ولا يُطلب من البشر اقتفاؤها أو تطبيقها - مهما كان منشؤها - ومع هذه الدقّة المتناهية في أحكامه وتشريعاته إلا أنّه نصّ جاذب للقارئ من حيث جريانه على سنن العرب في الكلام ومن حيث بلاغته وبراعة أساليبه التي تأتت له من طريقة نظم العجيب . فضلاً عن التعبد في تلاوته ، بل التعبد في تلاوة أيّ حرف من حروفه ؛ لذا نجد المؤلفين القدماء كالثعالبي وغيره^(٩) - حين يشيدون بفضل اللغة العربية وتفضيلها على أيّة لغة أخرى - يأتي من هذه الناحية ويمكننا أن نبعد التعصّب في هذا التفضيل - إذا عرفنا أن اللغة طريقة للتفاهم بين الناس أو أنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم - وهذه خصلة لا نجدها في أيّ كتاب مؤلّف على وجه البسيطة . فإنّك تجد سموّاً

في تعبير القرآن الكريم وقرب مأخذه ، فإنك لا تجد صعوبة في فهمه ولا تجد وعورة في ألفاظه ولا في معانيه ، فهي على العموم مفهومة للناس إذا ما قُورن بالنصوص الجاهلية المعاصرة لنزول القرآن . إن النبوة لم تكن منصباً وضعياً يأتي عن طريق الانتخاب - مثلاً هو حاصل في العصر الحديث - ولا هو منصب يحصل عليه من يقوم بثورة أو من يقوم بانقلاب أو نحوه ، ولا هو يأتي بالبيعة سلفاً إذ حصل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على بيعة المسلمين بعد أن بعثه الله نبياً لآخر الزمان . إنما هو شيء لا يشبه ما يحدث للبشرية وما يتعلق بنظام الحكم . هو اختيار إلهي ، جاء ذلك بنصوص آيات صريحة في القرآن الكريم ، تثبت أن النبي لا يمكن أن يدعي النبوة بل هي اصطفاء سماوي لا دخل للنبي المبعوث فيه ولا دخل لقومه فيه أيضاً ، قال تعالى ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)) (١٠)

فجاءت بعثة رسول الله "ص" من الله تعالى ولا دخل له فيها أو قومه الذين وصفهم بالأميين ووصفهم - قبل أن يأتي الرسول "ص" - بأنهم كانوا في ضلال مبين مؤكداً ذلك باللام المؤكدة . وكانت بعثة الرسل رحمة من الله تعالى لإنقاذ الناس من ضلالهم وما يجرون على أنفسهم من ويلات نتيجة تعاملهم مع بعضهم . بدليل قوله تعالى بعد الآية المذكورة ((وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)) (١١)

فالله عزّ وحكم وقضت عزّته وقضى حكمه أن يبعث واحداً من القوم ليقوم بتبليغ قومه بما ينزله الله لهم حتى يعيشوا باطمئنان تام وهذه الرحمة الالهية عبر عنها الحق بالفضل والله ذو الفضل العظيم . وهذا الفضل الالهي لا يخصّ قوماً دون قوم ولا ملة دون أخرى ، إنما هو فضل عام بقوله تعالى ((وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)) (١٢)

وبهذا تندفع حجة كل قوم على الله تعالى . وأخبر القرآن الكريم أن ما لاقاه الانبياء - وهم يبلغون رسالات ربهم - يكاد يكون متشابهاً مع اختلاف في نسبة العنت الذي يواجهه الأنبياء ودرجة تسلط الحكام أو المتنفذين من الناس حرصاً على مصالحهم الخاصة ، وبين القرآن الكريم ذلك في آيات كثيرة منها ((وَلَقَدْ

كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ ((^(١٣))

وقوله تعالى ((وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ))^(١٤) ولو ترى أَنَّ القرآن الكريم يتحدث طويلاً عن " السخرية " من السفهاء - وهم يقفون عقبة كؤود - بوجه الأنبياء الذين أرسلوا إليهم ووجود هذه السخرية دليل على أَنَّها مؤلمة وَأَنَّ الله تعالى يمقتها ولا يريد لها لعباده ، بل يريد منهم التقوى وأخذ الأمور على محمل الجد .

وحيث بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين يتمثل في مغزى بعيد الأهمية من أجل هداية الناس وقد أخذ النبي "ص" على نفسه تحمّل أعباء الرسالة والعفو عن الناس من أجل إقامة الدين وجمع الناس على كلمة التوحيد ، فقد عفا "ص" عن الصحابي "حطاب" إذ بعث رسالة إلى أهله ينذرهم بقدوم المسلمين ليفتحوا مكة وأخبره الوحي بذلك أو جاء الخبر عن طريق القوافل إذ كشف سرّ المسلمين واعترف بذنبه ، ونحن نعلم أَنَّ الدول اليوم تحاكم من يقوم بمثل ما قام به بإعدامه بتهمة الخيانة العظمى للبلاد .وعفا أيضاً عن الصحابة الذين " حاولوا " اغتياله "ص" بما سمي بتفسير الناقة في طريق عودته من غزوة تبوك مع الروم وألقوا صخرة لتقع في طريقه "ص" فتتفر الناقة ويسقط "ص" في الوادي وأمر حذيفة بن اليمان بالصعود إلى الجبل وكان حذيفة قد عرفهم من رواحهم مع أَنهم كانوا ملتئمين لكنّه "ص" أمر حذيفة بكتمان الخبر وكنتمه رغبة منه "ص" بالمحافظة على أصحابه وطمعاً في أَن يرجعوا إلى جادة الصواب بعد زيغ أو انحراف وحتى لا يقولون إِنَّ مُحَمَّدًا "ص" يقتل أصحابه وأن لا ينكّد النصر الذي تحقّق من تبوك من غير قتال ، وهذه العقلية " الاستراتيجية " هي التي مكّنته "ص" من كسب القلوب والعقول على حدّ سواء وأنّه نجح على الصّاعدين الديني والدنيوي على السواء .

ويصادف النبي من قومه - إذا كانوا جبلوا على الخبث والمكر - عنناً ما بعده عننت مثلما مرّبه موسى "ع" حين عبد بنو اسرائيل العجل من بعده ، فقد تناول الزمخشري وهو يفسر قوله تعالى ((وَإِذْ قَالَ مُوسَى

لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ))^(١٥)

ذلك بقوله : حمل قوله : { فاقتلوا أنفسكم } على الظاهر وهو البع وقيل : معناه قتل بعضهم بعضاً . وقيل : أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبد . وروى أن الرجل كان يبصر ولده ، ووالده وجاره وقريبه ، فلم يمكنهم المضي لأمر الله ، فأرسل الله ضباباً وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها ، وأمروا أن يختبوا بأفنية بيوتهم ، ويأخذ الذين لم يعبدوا العجل سيوفهم ، وقيل لهم : اصبروا ، فلعن الله من مدّ طرفه أو حلّ حبوته أو اتقى بيد أو رجل ، فيقولون : آمين فقتلهم إلى المساء حتى دعا موسى وهارون وقالوا : يا رب ، هلك بنو إسرائيل ، البقية البقية ، فكشفت السحابة ونزلت التوبة . فسقطت الشفار من أيديهم ، وكانت القتل سبعين ألفاً . فإن قلت : ما الفرق بين الفاءات؟ قلت : الأولى للتسبيب لا غير ، لأن الظلم سبب التوبة . والثانية للتعقيب لأن المعنى فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم ، من قيل أن الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم . ويجوز أن يكون القتل تمام توبتهم . فيكون المعنى : فتوبوا ، فأتبعوا التوبة القتل تنمة لتوبتهم ، والثالثة متعلقة بمحذوف ، ولا يخلو إما أن ينتظم في قول موسى لهم فتتعلق بشرط محذوف ، كأنه قال : فإن فعلتم فقد تاب عليكم . وإما أن يكون خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات . فيكون التقدير : ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارؤكم . فإن قلت : من أين اختص هذا الموضع بذكر الباري؟ قلت : الباري هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت { ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت }^(١٦) وامتيازاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة ، فكان فيه تقريب بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة أبرياء من التفاوت والتنافر ، إلى عبادة البقرة التي هي مثل في الغباوة والبلادة . في أمثال العرب : أبلد من ثور حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم ، وينثر ما نظم من صورهم وأشكالهم ، حين لم يشكروا النعمة في ذلك ، وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها^(١٧).

فلم يكن لدى النبي من بدّ إلا أن يطلب منهم ما أمر به الله سبحانه وتعالى وهو القتل حتى يتقبل منهم توبتهم ؛ وبذلك ندرك مدى ارتكاب اولئك القوم الآثام والموبقات .

ويلقانا النبي موسى مرّة أخرى في مخاطبته فرعون ، بقوله ((وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ))^(١٨)

وقال القرطبي وهو يفسر قوله تعالى : { حقيق على } أي واجب ومن قرأ على ألا فالمعنى حريص على ألا أقول وفي قراءة عبد الله حقيق ألا أقول بإسقاط على وقيل : على بمعنى الباء أي حقيق بألا أقول وكذا في قراءة أبي و الأعمش بألا أقول كما تقول : رميت بالقوس وعلى القوس فحقيق على هذا بمعنى محقوق ومعنى { فأرسل معي بني إسرائيل } أي خلهم وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة ^(١٩) وأنت إذ تلاحظ الطريقة التي تكلم بها موسى "ع" مخاطباً فرعون بأدب وبلقبة الملكي ؛ حتى يلقي الحجة عليه أولاً وأن لا يعطيه فرصة لترك الامر المهم والذهاب إلى أمر ثانوي للتأثير في النبي وحرف مسار الخطاب الاصلي . فكان الكلام على هذه الحال مقبولاً ويتماشى مع أمر الله تعالى ((فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى))^(٢٠)

ونلاحظ بـم ردّ فرعون ((قَالَ إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِآيَةٍ فَأَتِ بِهَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ))^(٢١) وفي ردّه نكاه ؛ فلم يشتم أو يأمر الحرس مثلاً بقتل النبي ، وكان قد اعتمد هنا على ذهنه وعلى فراسته بأن طلب من النبي الآية وهي البرهان والدليل ؛ لاعتقاده بأن النبي لا يملك أي شيء فقد كان مقتنعاً بأنه هو الإله وأن الانهار تجري من تحته - كما أخبرنا القرآن في آيات أخر ! ولم يخاطب موسى باسمه أو أي لقب آخر مع علمه باسمه ولم يكن خطابه موازياً لخطاب النبي المؤدب . فجاء ردّ موسى "ع" من دون كلام هذه المرّة ((فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ))^(٢٢)

إذ لم يكن النبي محتاجاً إلى الكلام ، بل هو محتاج إلى الاقناع أولاً وإلى كسب الوقت ثانياً ، فإنه يعرف فرعون جيداً ، وثالثاً هو يريد - فيما يبدو - أن يلفت الانتباه فهناك جمع من الناس - بحسب دلالة الآية الآتية بعد قليل . وبعد أن ألقى عصاه أتى بآية مماثلة ((وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ))^(٢٣)

وهنا يسكت فرعون ويبهت ويسقط في يده . فينبري الذين أفادوا من جبروته وهم من قومه ليحرفوا الخطاب وشروطه فقد طلب فرعون من النبي فأتاه باثنتين معا لكنهم أرادوا أن يحرفوا مسار الخطاب ((قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَزْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغْلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ))^(٢٤)

فأول ما نطقوا به - ردّاً على الآية التي طلبها سيدهم فرعون أن اتهموه بالسحر ، فهذه تهمة جاهزة تمكنهم من الهرب وعدم مواجهة النبي ؛ لحجته الدامغة . ثم وجهوا للنبي تهمة ثانية بأنه يريد إخراج الفراعنة - قوم فرعون - من أرضهم وطلبوا بعد ذلك المشورة والأمر من قوم فرعون وكأن فرعون بعيد عن هذا وهم تبنوا القضية ! وبد المداولة - فيما يبدو - طلبوا من فرعون التريث بالأمر وأن يؤخر النبي موسى وأخاه هرون وأن يبعث في المدن لإحضار السحرة ؛ كون عمل موسى السحر ولا يرد إلا بالسحر وبعد أن اختاروا السحرة فرعون طلبوا منه أجراً إذا غلبوا موسى - ويبدو أنهم متمكنون من سحرهم . فوافق على الاجر وزيادة . وهو بعمله هذا قدر الخطر المحقق به وقدر موهبتهم السحرية - إن صح التعبير - فقالوا - بتمكّن - لموسى من يبدأ أولاً فقال انتم من يبدأ فألقوا وسحروا أعين الناس وخوفوهم بسحر عظيم ! فجاء الوحي لموسى أن ألقى فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون وغلبهم موسى بمعجزة إلهية من

جنس ما كانوا يسحرون به الناس . ولم يكن هذه الآيات كافية لفرعون ولا لملئه ولا لقوم موسى ، فهتد فرعون السحرة بعدما آمنوا برب موسى وهرون ، ولم يقبل قوم فرعون منه أن يذر موسى وقومه "يفسدون" في الارض - كما يقولون ، فاستعمل فرعون - بدفع من قومه - واستمر في أذية بني اسرائيل . وفي المقابل يطلب النبي من قومه الصبر والاستعانة بالله وهم يقولون لنبيهم أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا فيقول لهم : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون . وكان قضاء الله أن يأخذ آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات تأديباً لهم لعلهم يذكرون ولكنهم يدعون أن الحسنات من صنع أيديهم وكانوا يطّيرون بموسى ومن معه . واستبدوا بعد كل هذا واتهموا النبي مرة أخرى بالسحر وبأتهم "مهما" يأتيهم به لا يؤمنون فعندها جاء الامر الالهي بعذابهم وبإغراقهم وبالآيات التسع المعروفة (٢٥)

وقال سيد طنطاوي حين ذكر الآية ((ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)) (٢٦)

بعد هذه الآيات : والمعنى : ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل الذين سبق الحديث عنهم - وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا التي تدل على صدقه فيما يبلغه عن ربه إلى فرعون وملئه ، وهم أشراف قومه ، ووجهاء دولته . قال بعض العلماء : " ولم يقل - سبحانه - إلى فرعون وقومه ، لأن الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبدين لبني إسرائيل ، ويبددهم أمرهم ، وليس لسائر المصريين من الأمر شيء ، ولأنهم كانوا مستعبدين - أيضا ولكن الظلم على بني إسرائيل الغرباء كان أشد " (٢٧).

وقد يكون الطرف الثاني صادقا في مقابل خطاب النبي، على غرار ما نجد ذلك واضحا جليا عند مخاطبة أولاد يعقوب "ع" له ((وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)) (٢٨)

فأولاد النبي يعقوب ذكروا لأبيهم ما رأوه ماثلا أمام أعينهم مثلما رأى الناس الذين كانوا يرافقونهم في القافلة ، ونوه الالوسي إلى ذلك وهو يفسر الآية المذكورة وهو يتحدث عن الشيء الذي إذا اتضحت

معالمه وبان جلياً: ((ظهر ظهوراً كاملاً فقد يقال فيه : سل السماء والارض وجميع الاشياء عنه ، والمراد أنه بلغ في الظهور إلى الغاية التي ما بقي للشك فيه مجال)) (٢٩)

وكان النبي إبراهيم "ع" اتخذ طريقاً في مخاطبة قومه ابتداء من عمه الذي سمّاه القرآن أباه معتمداً على وصفهم بانهم في ضلال مبين ، وما من شك في انك حين تصف أحداً بالضلالة سيصدم وسيفكر بطريقة جدية فيما تقوله له ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)) (٣٠) وذكر ابن عبد السلام في تفسيره : أن أزر اسم أبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان من أهل كوثى قرية من سواد الكوفة أو أزر ليس باسم بل هو سب وعندما وعيب معناه "معوج" كأنه عابه في اعوجاجه عن الحق وضاع حق أبوته بتضييعه حق الله تعالى أو أزر اسم صنم وكان اسم أبيه "تارح" (٣١) ينظر في النجوم ، رأى الكواكب تأفل ثم رأى القمر يأفل حوّل نظره إلى الشمس فهي أكبر وإذ هي تأفل قال يا قوم : إني بريء مما تشركون ، أي أنه نظر مثلما نظروا ولم يقف عند حدّ سلفاً ، لكنّ نظريته نظرة المتفحص المتدبر العاقل غي المقلد ((فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)) (٣٢)

وبعدما أخبرهم النبي ببراءته من شركهم لم يسكتوا ولم يطيعوه ، بل تراهم يحاجونه ((وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)) (٣٣)

فأخبرهم بأنه لا يخاف ما يشركون به من أصنام من غير هدى ولا سلطان ، ولم يكتف بهذا ، بل راح يفنّد طرقهم بشكل علمي مبني على البراهين والادلة الساطعة التي لا تبقى عندهم ذريعة يتذرّعون بها ، وهي انه لم يخاف مما أشركوا به ولم ينزل به سلطان بين ، بينما هم لا يخافون مما آمن به النبي مع أدلته وبراهينه . وبعد هذا الحوار الدقيق الذي يخرج عن آية مصلحة يروجها النبي سوى رضا الله تعالى ، وصل إلى نهاية الحجاج والخطاب بطريقة علمية دقيقة وهو مطمئن : من ينعم بالامن : أنا الذي معي

برهان وسلطان وعلى بينة من أمري أم أنتم من لا تملكون شيئاً من ذلك ؟ وهذه النتيجة - من دون شك - صادمة لهم . وسمى إبراهيم ما يعبدون من دون الله أصناماً ويسمونها مرة أخرى تماثيل بقوله ((إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ))^(٣٤)

على سبيل الاستفهام فهو ((يثير في النفس التفكير ويدفعها إلى تدبر الأمور حتى تقتنع بتفكيرها الخاص ، بأنه ما كان ينبغي أن يقع ما وقع أو كان الصواب أن يقع ما لم يقع))^(٣٥)

ووجه إبراهيم "ع" خطابه أول الامر قبل هذه الآية وفي قوله تعالى ((وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا))^(٣٦)

إلى أبيه أول مرة ؛لانه ((رأى ان من أولى مهماته في الدعوة إلى الله أن يبدأ بدعوة أبيه لان بقاء أبيه على الكفر يخلق نقطة ضعف في موقفه وقد يسبب له مصاعب داخلية تعطل خطواته أو تجلب له مشاكل غير منتظرة))^(٣٧)

وهذا يندرج في الحقيقة في جانب الذكاء الذي يتمتع به إبراهيم "ع" و ((عن طبيعة التأمل لديه وتدرجه في عملية الاستدلال من الاصغر إلى الاكبر ، من الكواكب إلى الشمس ، مما يجعل المتلقي يشعر أنه يستبطن عقل الشخصية الايجابية بحيث يتصور أنه يرافقه في رحلته هذه وفي تأمله ذاك حتى وصوله عليه السلام إلى النتيجة النهائية في وعي تام ومكتمل))^(٣٨)

ويبدو أنّ قوم النبي إبراهيم تناسبهم مثل هذه الطريقة . إذ أنّه استعمل مع النمرود خطابا يختلف مع خطاب النبي موسى "ع" وكذلك استعمل مع قومه خطابا يختلف مع خطاب قوم موسى أيضاً ((أَلَمْ تَرَ

إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ))^(٣٩)

فأنت إذ تلاحظ أن الله تعالى لم يذكر النمرود باسمه أو لقبه احتقاراً له على جبروته ، إذ كان تافهاً مدّعياً الألوهية ، فخاطبه النبي خطاباً يليق بذهنه إذ قال له جواباً على سؤاله وسؤال كل من يطلب الميرة من الملك ، يقال له : من ربك فيقول : ربي النمرود ، لكن إبراهيم لم يقل : النمرود لم يكن ربي ، بل قال : ربي الذي يحيي ويميت فجاء به إلى النمرود فحاوره ، ولما قال للنبي : أنا أحيي وأميت ، عندها أراد النبي أن يفحمه ويبين عجزه وحقاقته فقال له : فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأنت بها من المغرب ، فبهت . بينما كان حوار فرعون مختلفاً مع موسى "ع" ويدل على ذكاء بين مع اتفاق الطاغيتين على العجرفة والتعالي . وتعرض الآلوسي إلى النمرود واسمه وحقاقته وأنه أول من ادعى الربوبية بقوله :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ } بيان لتسديد المؤمنين إذ كان وليهم وخذلان غيرهم ولذا لم يعطف ، واهتم ببيانه لأن منكري ولايته تعالى للمؤمنين كثيرون ، وقيل : استشهاد على ما ذكر من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وتقرير لهم كما أن ما بعده استشهاد على ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير لها ، وبدأ به لرعاية الاقتران بينه وبين مدلوله ولاستقلاله بأمر عجيب حقيق بأن يصدر به المقال وهو اجتزاؤه على المحاجة في الله عز وجل ، وما أتى به في أثائها من العظمة المنادية بكمال حماقته ، ولأن فيما بعد تعداداً وتفصيلاً يورث تقديمه انتشار النظم على أنه قد أشير في تضاعيفه إلى هدايته تعالى أيضاً بواسطة إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإن ما يحكى عنه من الدعوة إلى الحق وادحاض حجة الكافرين من آثار ولايته تعالى ولا يخفى ما فيه ، وهمزة الاستفهام لإنكار النفي وتقرير المنفي ، والجمهور على أن في الكلام معنى التعجب أي ألم تنتظر ، أو ألم ينته علمك إلى قصة هذا الكافر الذي لست بولي له كيف تصدى لمحاجة من تكفلت بنصرته وأخبرت بأني ولي له ولمن كان من شيعته أي قد تحققت رؤية هذه القصة العجيبة وتقررت بناءً على أن الأمر من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد ممن له حظ من

الخطاب فلتمكن في الغاية القصوى من تحقق ما ذكرته لك من ولايتي للمؤمنين وعدمها للكافرين ولتطب نفسك أيها الحبيب وأبشر بالنصر فقد نصرت الخليل ، وأين مقام الخليل من الحبيب ، وخذلت رأس الطاغين فكيف بالأذنان الأذنين ، والمراد بالموصول نمرود بن كنعان بن سنجاريب وهو أول من تجبر وادعى الربوبية ، كما قاله مجاهد وغيره وإنما أطلق على ما وقع لفظ المحاجة وإن كانت مجادلة بالباطل لإيرادها موردتها ، واختلف في وقتها ف قيل : عند كسر الأصنام وقبل إلقائه في النار وهو المروي عن مقاتل وقيل : بعد إلقائه في النار وجعلها عليه برداً وسلاماً وهو المروي عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تشريف له وإيدان/ من أول الأمر بتأييد وليه له في المحاجة فإن التربية نوع من الولاية (٤٠).

وحاور إبراهيم قوم نمرود بشكل لا يختلف كثيراً عن حوار ملكهم ((قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمَ)) (٤١)

ورد هذا الخطاب عندما سمع بأن فتى يقال له إبراهيم هو الذي حطم الأصنام وهو سؤال يبدو منطقياً يريدون أن يعرفوا الفاعل الحقيقي. فأجاب النبي "ع" ((قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)) (٤٢)

فاستعمل النبي "ع" أسلوب السخرية يريد أن يؤثر فيهم عن طريق الاقتناع والمحاجة ، فإذا كان كبير الأصنام إلهاً فمن باب أولى سيتكلم وسيدافع عن نفسه وسيدل على الفاعل . وقد أفلح في ما قصد إليه مع أنه كان يقول ببساطة : أنا الفاعل ، لكنه أراد أن يلفت انتباههم إلى ضلالتهم ((فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ)) (٤٣)

((قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَبِكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)) (٤٤)

فبعد رجوعهم إلى أنفسهم واعترافهم بظلمهم عندها قال النبي "ع" أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم بدليل لو كان ينفع أو يضر لتكلم كبيرهم، وقد تناول الزمخشري هذه الآيات بقوله :

((هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني . والقول فيه أنّ قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ... ، ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة ، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشدّ لما رأى من زيادة تعظيمهم له . فأسند الفعل إليه لأنه هو الذي تسبب لاستهانتها بها وحطمه لها ، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه))^(٤٥)

وبعد هذا الحوار المنطقي الهادف ورجوع قوم إبراهيم إلى أنفسهم ما لبثوا أن صدوا عن السبيل وقالوا : حرّقوه ، وهذا ديدن الأمم والأقوام السابقة .

والذي جاء به الرسول "ص" يكون وزره أكبر من الانبياء السابقين - مع أنّ المنهج واحد - حتى من الانبياء من أولي العزم من الرسل ؛ لسبب موضوعي يتمثل في أنّه صلى الله عليه وآله وسلّم ختم رسالات السماء وأنّه مبعوث رحمة للعالمين جميعاً ، فلم تكن بالبشرية حاجة إلى رسالة أخرى ، فرسالته صالحة لكلّ زمان ومكان . وهو قد تحمّل عبء قومه وعبء اتباع الديانات السابقة السماوية وغير السماوية ، ودخل في معترك الحجاج مع النصارى ، وآية المباهلة صريحة مثلما دخل في خطاب وحوار مع اليهود ، فقد مسّهم مسّا مباشرا عندما يكتبون الكتاب بأيديهم ثم ينسبونه إلى الله ظلماً ويدعون أيضاً بأنّ النار لا تمسّهم إلّا أياماً معدودة ، تمثّل ذلك بقوله تعالى ((فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْشْتَروا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ))^(٤٦)

وهذا الخطاب يدلّ على ماكان اليهود عليه من مكر واحتيال وتزييف الحقائق ، ليس على البشر وإنّما ما يتعلق بالله تعالى . ولما جاءهم القرآن وهو مصدق لما معهم ومتوافق مع التوراة وهو يعرفون ذلك ومع ذلك كفروا به وإذا طلب منهم الايمان بالقرآن قالوا نؤمن بما أنزل علينا فيأتي الرد الحازم الذي لا جدال

فيه يتمثل بقول النبي لهم : فلم تقتلون أنبياء الله وأنهم اتخذوا العجل من بعد موسى . قال تعالى ((وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ))^(٤٧)

والملاحظ على هؤلاء اليهود أنهم يعتمدون على الخديعة بقولهم : نؤمن بما أنزل علينا مع أنهم قتلوا أنبياءهم واتخذوا العجل من بعد موسى ، وكان الاولى أن يحترموا الرسول الذي بعث فيهم وهو رسول الله الذي بشرت به التوراة وبشر به الانجيل وانه يسير على منهج النبوات وكان يقول نحن أولى بموسى من اليهود . وكان عبء دعوته مع قومه "ص" ثقيلًا إذ وصل بهم الامر أنهم يفعلون الفاحشة ولا يستحون منها ويقولون إنهم وجدوا آباءهم عليها وأن الله هو الذي أمرهم بها فيأتي الرد المناسب في أن الله تعالى لا يأمر ((وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ))^(٤٨)

وقد تناول التستري هذه الآية على النحو الآتي: اعلم أن في الناس من حمل الفحشاء على ما كانوا يحرمونه من البحيرة والسائبة وغيرهما، وفيهم من حمله على أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء ، والأولى أن يحكم بالتعميم، والفحشاء عبارة عن كل معصية كبيرة ، فيدخل فيه جميع الكبائر ، واعلم أنه ليس المراد منه أن القرم كانوا يسلمون كون تلك الأفعال فواحش . ثم كانوا يزعمون أن الله أمرهم بها ، فإن ذلك لا يقوله عاقل. بل المراد أن تلك الأشياء كانت في أنفسهم فواحش، والقوم كانوا يعتقدون أنها طاعات، وإن الله أمرهم بها ، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم كانوا يحتجون على إقدامهم على تلك الفواحش بأمرين . أحدهما : أنا وجدنا عليها آباءنا . والثاني : أن الله أمرنا بها.

أما الحجة الأولى: فما ذكر الله عنها جواباً، لأنها إشارة إلى محض التقليد، وقد تقرر في عقل كل أحد أنه طريقة فاسدة ، لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة ، فلو كان التقليد طريقاً حقاً للزم الحكم بكون كل واحد من المتناقضين حقاً ومعلوم أنه باطل ، ولما كان فساد هذا الطريق ظاهراً جلياً لكل أحد لم يذكر الله تعالى الجواب عنه .

وأما الحجة الثانية : وهي قولهم: {والله أَمَرْنَا بِهَا} فقد أجاب عنه بقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} والمعنى أنه ثبت على لسان الأنبياء والرسل كون هذه الأفعال منكراً قبيحاً ، فكيف يمكن القول بأن الله تعالى أمرنا بها؟ وأقول للمعتزلة أن يحتجوا بهذه الآية على أن الشيء إنما يقبح لوجه عائد إليه ، ثم إنه تعالى نهى عنه لكونه مشتملاً على ذلك الوجه ، لأن قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} إشارة إلى أنه لما كان ذلك موصوفاً في نفسه بكونه من الفحشاء امتنع أن يأمر الله به ، وهذا يقتضي أن يكون كونه في نفسه من الفحشاء مغايراً لتعلق الأمر والنهْي به ، وذلك يفيد المطلوب .

وجوابه : يحتمل أنه لما ثبت بالاستقراء أنه تعالى لا يأمر إلا بما يكون مصلحة للعباد ، ولا ينهي إلا عما يكون مفسده لهم ، فقد صح هذا التعليل لهذا المعنى. والله أعلم .

ثم قال تعالى: {أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} وفيه بحثان :

البحث الأول: المراد منه أن يقال: إنكم تقولون إن الله أمركم بهذه الأفعال المخصوصة فعلمكم بأن الله أمركم بها حصل لأنكم سمعتم كلام الله تعالى ابتداء من غير واسطة، أو عرفت ذلك بطريق الوحي إلى الأنبياء؟

أما الأول: فمعلوم الفساد بالضرورة .

وأما الثاني: فباطل على قولكم، لأنكم تتكلمون نبوة الأنبياء على الإطلاق، لأن هذه المناظرة وقعت مع كفار قريش، وهم كانوا ينكرون أصل النبوة ، وإذا كان الأمر كذلك، فلا طريق لهم إلى تحصيل العلم بأحكام الله تعالى ، فكان قولهم أن الله أمرنا بها قولاً على الله تعالى بما لا يكون معلوماً . وإنه باطل .

البحث الثاني: نفاة القياس قالوا: الحكم المثبت بالقياس مظنون وغير معلوم ، وما لا يكون معلوماً لم يجز القول به لقوله تعالى في معرض الذم والسخرية : { أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } وجواب مثبتتي القياس عن أمثال هذه الدلالة قد ذكرناه مراراً . والله أعلم ^(٤٩).

وقال ابن كثير في تفسيره : ((الفاحشة هنا في قول أكثر المفسرين طوافهم بالبيت عراة وقال الحسن : هي الشرك والكفر واحتجوا على ذلك بتقليدهم أسلافهم وبأ الله أمرهم بها وقال الحسن : والله أمرنا بها قالوا : لو كره الله ما نحن عليه لنقلنا عنه {قل إن الله لا يأمر بالفحشاء} بين أنهم متحكمون ولا دليل لهم على أن الله أمرهم بما ادعوا وقد مضى ذم التقليد وذم كثير من جهالاتهم وهذا منها)) ^(٥٠)

وختام القول ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام ينطلقون من منهج واحد وأمرنا بأن لا نفرق بين أحد من رسل الله وجميع رسالاتهم موضع احترام وإجلال .

الخاتمة:

- إن خطاب الانبياء أوثق خطاب ؛ لأنه صدر من لدن حكيم عليم .
- إن الاعباء التي تحمّلها الانبياء من أولي العزم من الرسل أكبر من غيرهم من الانبياء الآخرين وبطبيعة الحال كان خطابهم يستوعب ما كلّفوا به واستوعبوه .
- إن الخطاب الموجّه لليهود يختلف عن الخطاب الموجّه لغير هذه الديانة، سواء أكان صادرا من نبيهم موسى "ع" أو من الرسول محمد "ص" ؛ لما عرفوا من مكر وخبت وتحين السقطات لمصالحهم الشخصية وحبهم الشهوات ورضاهم بأدنى درجات الدنيا من ذلّ وهوان .
- كانت الاقوام ترضخ إذا واجهتها أنبياؤها بالمعجزات وبالبراهين العميقة، لكنها سرعان ما تتقلب على عقبيها وتعود سيرتها الاولى في ارتكاب المعاصي والآثام .
- لم يطلب أي نبي أجراً على رسالته إنّما كان يقوم بهذا العبء العظيم طلباً لوجه الله تعالى، ولم يطلب رسول الله "ص" أجراً إلا المودة في القربى .

-كان الانبياء "ع" يواجهون مشكلة كبيرة حين يأتيهم الامر الالهي بالتصدي للطواغيت إلا أنهم كانوا على دراية كبيرة وذكاء حاد في اتخاذ أفضل الطرق لئلا يصرف الطاغوت الحوار إلى أشياء يضعف معها دعوة النبي، وقد نجحوا نجاحا عظيما في السيطرة على أولئك الطواغيت وأفحموهم .

-توصل البحث إلى أن الاقوام يقومون بمقابلة النبي بأساليب بعيدة عن موضوع الحوار؛ لأنهم لا يستطيعون إقامة الحجة على نبيهم فتراهم يلصقون به تهما بعيدة عن شخصه من مثل الفساد أو الإخراج من الارض أو السحر أو الكذب .

الهوامش:

- (١) العنكبوت / ١٤ .
- (٢) هود: ٥١.
- (٣) الانعام / ٩٠ .
- (٤) سورة يس / ٢١ .
- (٥) المائدة : ٧٢ .
- (٦) الصف : ٦ .
- (٧) سورة طه : ٧١ .
- (٨) الزخرف / ٥٤ .
- (٩) في مقدّمة كتابه فقه اللغة وسرّ العربيّة .
- (١٠) الجمعة / ٢ .
- (١١) الجمعة / ٣ - ٤ .
- (١٢) الرعد / ٧ .

- (١٣) الأنعام / ٣٤ .
- (١٤) الرعد / ٣٢ .
- (١٥) البقرة : ٥٤ .
- (١٦) الملك : ٣ .
- (١٧) الكشاف ٩٢/١ .
- (١٨) الاعراف ، الآيتان : ١٠٤ و ١٠٥ .
- (١٩) تفسير القرطبي : ٧ / ٢٢٨ .
- (٢٠) سورة طه : ٤٤ .
- (٢١) الاعراف : ١٠٦ .
- (٢٢) الاعراف : ١٠٧ .
- (٢٣) الاعراف : ١٠٨ . وقال الشنقيطي : ذكر تعالى هنا أن موسى نزع يده فإذا هي بيضاء ولم يبين ان ذلك البياض خال من البرص ولكنه بين ذلك في سورة النمل والقصص في قوله فيهما "تخرج بيضاء من غير سوء" أي من غير برص . الشنقيطي : ١٣١/٢ .
- (٢٤) الاعراف : الآيات من : ١٠٩ - ١٢٠ .
- (٢٥) تنظر الآيات من سورة الاعراف : من ١٢١ - ١٣٦ . إذ تحدثت عن ذلك بالتفصيل .
- (٢٦) الاعراف : ١٠٣ .
- (٢٧) تفسير سيد طنطاوي : ١٦٦٣ .
- (٢٨) يوسف : ٨٢ .
- (٢٩) روح المعاني : ١٨ / ١٩٤ .
- (٣٠) الانعام : ٧٤ .
- (٣١) تفسير ابن عبد السلام : ٢ / ٥١ .
- (٣٢) الانعام : ٧٨ .
- (٣٣) الانعام : ٨٠ - ٨١ .
- (٣٤) الانبياء : ٥٢ .

(٣٥) من بلاغة القرآن : ١٢٦ .

(٣٦) مريم : ٤١ - ٤٨ .

(٣٧) الحوار في القرآن الكريم : ٢٦٣ .

(٣٨) جماليات التلقي في السرد القرآني : ٩٩ .

(٣٩) البقرة : ٢٥٨ .

(٤٠) روح المعاني : ٣٢٦ .

(٤١) الانبياء : ٦٢ .

(٤٢) الانبياء : ٦٣ .

(٤٣) الانبياء : ٦٤ .

(٤٤) الانبياء : ٦٦ - ٦٨ .

(٤٥) الكشاف : ٢٣٩/٤ .

(٤٦) البقرة : ٧٩ - ٨٠ .

(٤٧) البقرة : ٨٩ - ٩٢ .

(٤٨) الاعراف : ٢٨ .

(٤٩) تفسير التستري : ٧٣/٧ .

(٥٠) تفسير ابن كثير : ٧ / ١٦٦ .

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم .

- تفسير التستري : أبو محمد سهل بن عبد الله التستري ، علق عليه ووضع حواشيه : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧١ .

- التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد سيد طنطاوي ، الناشر : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٧ .

- تفسير القرآن بالقرآن من أضواء البيان : الشيخ محمد الامين بن أحمد المختار الشنقيطي ، إعداد سيد محمد الشنقيطي ، دار الفضيلة (د.ت) .
- تفسير القرآن العظيم : ابن كثير الدمشقي ، وضع حواشيه وعلق عليه : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية (د.ت) .
- تفسير القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ، ضبطه وحققه وقابل مخطوطاته : سالم مصطفى البدري ، الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠١٠ .
- تفسير العزّ بن عبد السلام - تفسير القرآن ، دار ابن حزم ، ١٩٩٦ .
- جماليات التلقي في السرد القرآني : يادكار لطيف الشهرزوري ، دار الزمان للطباعة والنشر ، دمشق ، ط١ ٢٠١٠ .
- الحوار في القرآن الكريم (قواعده - أساليبه - معطياته) : محمد حسين فضل الله . دار الملاك - بيروت ، ط١ ١٩٩٦ .
- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د.ت) .
- فقه اللغة وسر العربية : أبو منصور الثعالبي ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، الناشر : إحياء التراث العربي ، ط١ ٢٠٠٢ .
- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل : أبو القاسم جار الله الزمخشري ، تحقيق وتعليق : الشيخ عادل عبد الموجود والشيخ علي معوض ، مكتبة العبيكان ، ط١ ١٩٩٨ .
- من بلاغة القرآن : أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ٢٠٠٥ .